مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 24 العدد:4 السّنة: الثّلاثي الرّابع 2022 ص 990- ص :1019

التّوجيهات النّقديّة من خلال رحلة العبدري "قسم المشرق"

Monetary Directives through Al-Abdari's journey "The Levant Section"

أ. سعيداني محمّد♥

تاريخ الاستلام: 18-05-2020 تاريخ القبول: 18-11-2021

الملخّص: تعدّ الرّحلة العبدريّة حلقة من حلقات النّقد الأدبيّ في المغرب العربيّ فلم يترك العبدريّ جانبًا إلاّ ناقشه وأبدى رأيه فيه، ولم تكن توجيهاته منصبة على النّقد الأدبي وحسب، بل إنّها تعدّته إلى النّقد اللغويّ والبلاغيّ والعروضيّ وغيره. وقد آثرنا في هذه الدّراسة الإلمام بكافة جوانب النّقد في النّصّ الرّحليّ العبدريّ، من خلال تركيزنا على الجانب المشرقيّ منها.

الكلمات المفتاحيّة: الرّحلة؛ النّقد اللغويّ؛ النّقد العروضيّ؛ النّقد البلاغيّ.

Abstract: Al-Abdary's journey is considered as an episode of literary criticism in the Arab Maghreb. Al-Abdari discuss every side of the literary criticism and express his opinion on it his directives were not only focused on literary criticism, but rather than that he considered it to be linguistic, rhetorical, and prosodic criticism and others. We will seek in this study to explain all the aspects of criticism in the Abdari's journey, and we focused on the eastern side of it.

♥جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، البريد الإلكتروني: saidanimohammed86@gmail.com (مؤلّف مرسل).

Keywords :the journey; Linguistic criticism; prosodic criticism; Rhetorical criticism.

1-المقدّمة: تشغل الرّحلة مكانة مهمّة في الثّقافة العربيّة، فقد اهتمّ بها كثير من الباحثين الذين راحوا يدرّسون هذا الجنس الأدبيّ بطرائق مختلفة ومناهج تقليديّة أو حديثة، وقد وجد فيه هؤلاء معينا ثرّا لا ينضب، فتعدّدُ موضوعاته ومضامينه، وأشكاله وأساليبه جعل كلّ باحث يجد فيه ضالتّه وفق مناهج متعدّدة.

ولذلك نُشر عدد كبير من الرّحل في العصر الحديث، ولا يزال قسم منها مخطوطا قابعًا في رفوف خزانات الكليّات ينتظر أن يُفكّ أسره، ويطلق سراحه ليُسهِم في توسيع دائرة النّقاش في قضايا الرّحلة بين عموم القرّاء والباحثين[1].

لقد ركّز كثير من الدّارسين على إبراز مدى الحضور المعرفيّ في الرّحلات، غير أنّ الجانب الأدبيّ والنّقديّ لم يحظ بعناية من قبل الباحثين الذين تعاملوا مع هذه الكتابة الرّحليّة بوصفها معينا ثرّا للعديد من المعارف المتنوّعة، ولعل توجّههم هذا له ما يسوّغه:

أ.- إنّ مقصديّة كثير من الرّحالين – ولاسيما القدماء منهم – هو إفادة القارئ بمدّه بكمّ وافر من المعلومات والمعارف التي حصّلها الرّحالة أثناء رحلاتهم، أو قبلها ورأى أنّ القارئ قد يحتاج إليها.

ب.- إنّ كثيرا من كتّاب هذه الرّحلات كانوا فقهاء وعلماء وبضاعتهم من ممارسة الأدب مزجاة، وبما أنّهم كذلك فقد كانت رغبتهم في التّعليم حاضرة بقوة، وهذه الرّغبة تفترض استعمال لغة واضحة تقريريّة تؤدّي المعنى المراد بيسر وسهولة.

إنّ ضمور الجانب الأدبيّ في هذه الرّحلات يتيح لنا تقسيم هذه الرّحلات إلى مجموعتين تبعا لما ذهب إليه إنجيل بطرس في حديثه عن الرّحلة بصفة عامة وتصنيفه هذه الكتابة إلى: أدب الرّحلة، وإلى وصف الرّحلة.

فالكتابة الرّحليّة تدخل في باب أدب الرّحلة إذا اكتملت لها بعض الصّفات الأدبيّة التي لا غنى عنها في ما يعدّ أدبا من الكتابة بوجه عام، ولا يدخل في نطاقه ما يفتقر

إلى تلك الصّفات،" فإذا اكتملت له هذه الصّفات سمي أدب الرّحلات. أمّا ما عدا ذلك فيطلق عليه وصف الرّحلات"[2].

ومأمول هذه الدّراسة الوقوف عند الجانب النّقديّ في النّصّ الرّحليّ، واخترنا لذلك رحلة العبدريّ[3] وهي متن يفيد مؤرّخي الأدب في تبيّن التّاريخ الأدبيّ للأقطار التي مرّ بها العبدريّ، كما تضمّ مع ذلك تلميحات نقديّة في غاية الأهميّة حول نصوص شعريّة ونثريّة من المشرق والمغرب، ارتأينا الوقوف عند الجانب المشرقيّ منها.

1.1-النّقد الأندلسيّ والمغربيّ في دراسات النّقاد المعاصرين: كانت الفكرة السّائدة عند الدّارسين – إلى عهد قريب– عن النّقد في المغرب والأندلس أنّه سار في فلك النّقد الأدبيّ في المشرق، ورغم بعض الإضاءات التي نجدها في دراسات حسين مؤنس، والطّاهر مكّي، وعبد الله عنان، وإحسان عباس، ومحمّد رضوان الدّاية والباحثين المستشرقين الذين يهتمون بهذا الموضوع، فإنّ مجال النّقد في المغرب والأندلس بقي خلْوًا من أيّ دراسة نقديّة موضوعيّة قائمة بذاتها، حتى أخذت تظهر في الآونة الأخيرة بعض الرّسائل الجامعيّة كرسالة الأستاذ محمّد الكَنوني عن تحقيق كتاب: "الوافي في نظم القوافي" للشّريف الرّندي، ورسالة الأستاذ علّال الغازي عن تحقيق كتاب "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" للسّجلماسي، ورسالة الأستاذ رضوان بنشقرون عن تحقيق كتاب "الرّوض المريع في صناعة البديع" لابن البنّاء المراكشيّ، ورسالة الأستاذ محمّد الحجوي عن تحقيق كتاب: "رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة" لأبي القاسم الشّريف السّبتي، والبحث القيّم الذي أنجزه الأستاذ أحمد حدّادي عن الجانب النّقدي في رحلة ابن رشيد السّبتي، ودراسة الأستاذ علي لغزيوي عن النّقد الأدبيّ بين النّظريّة والتّطبيق خلال القرنيين السّابع والثّامن الهجريين ودراسة الأستاذ علال الغازي عن النّقد الأدبي في المغرب خلال القرن الثّامن الهجري. هذا بالإضافة إلى تحقيق "كتاب منهاج البلغاء" بعناية الأستاذ محمّد بلحبيب بن خوجة، وأبحاث الرّواد في هذا المجال كالأستاذ محمّد الفاسي، والأستاذ محمّد المنوني، والأستاذ محمّد بنشريفة، والأستاذ عبّاس الجراريّ، وغيرهم.

فحينما درس الأستاذ رضوان الدّاية مسألة النّقد في المغرب بعنوان "تاريخ النّقد الأدبي بالأندلس" اكتفى بإيراد بعض النّماذج التي كانت معروفة والتي أمكن تحقيق النّصوص المتعلّقة بأصحابها كابن عبد ربه القرطبي وكتاب "العقد الفريد"، وابن شهيد ورسالة"التّوابع والزّوابع"، وابن حزم، وابن بسام وكتاب "الذّخيرة" وابن سعيد وكتاب "المرقصات والمطربات"وأبي القاسم الكلاعي و"إحكام صنعة الكلام"، وابن شريف الرّندي والوافي في نظم القوافي وحازم القرطاجني ومنهاج البلغاء، وكذلك صنع الأستاذ إحسان عباس في كتابه: تاريخ النّقد الأدبي عند العرب في الجزء المخصّص للأندلس.

ولم يتوقّف الحد عند هذا الأمر بل تجاوزه إلى المستشرقين الذين نبهوا إلى أهمّيتها العلميّة والنّقديّة وذلك بنقولهم عنها في أبحاثهم، وترجمة أجزاء منها فانصرف الكثيرون منهم إلى الاشتغال بها وإخراج نصوصها، وهكذا تم طبعها أوّلا بالجزائر بتحقيق الأستاذ بن جدو، إلاّ أنّها طبعة مبتورة ينقصها أكثر من النّصف فكانت طبعة الرّباط الحاليّة بتحقيق الأستاذ الفاسي مكملة هذا النّقص، إذ أخرجت الرّحلة في طبعة علميّة مفيدة"[4].

والأكيد أنّ الجهود التي يقوم بها الباحثون المغاربة في إخراج الآثار الأدبيّة والنّقديّة التي يزخر بها التّراث المغربي الأندلسي، أفرزت اتجاها جديدا في الدّرس النّقدي المغربي وتؤكد أنّ كثيرا من الحلقات في سلسلة هذا التّراث كانت مغمورة أو ما تزال ضائعة إلى الآن، الأمر الذي جعل من ينظر في مادّة الأدب لهذا الجناح الغربي من المشارقة يجد نقصا أو ضعفا في هذه المادّة فَيصمُها بالتّبعيّة والابتداع ولقد تحدث الأستاذ علّال الغازي عن أهميّة المصادر التي اعتمدها لأطروحته في النّقد الأدبي وهي: رحلة العبدريّ، والذيل والتّكملة، ورفع الحجب المستورة، والمنزع البديع، وأبرز ما تختزله من قضايا نقديّة متميزة ومصطلحات حصّنت خطة أصحابها في رسم مناهجهم والتّزام مكتبتهم المرجعيّة كدعم معرفي يضبط الرّؤيّة ويخصّب القضيّة النّقديّة المدروسة[5]. فهو عندما يعالج أسلوب العبدري ومنهجه في كتابة الرّحلة يتحدّث عن الضّوابط التي تضبط المنهج وهي:

أ–تداخل أسلوبي السّجع والمرسل.

ب–وصف الموضوعات العلميّة بالمسجع، وذلك من خلال ذكر أصناف البلدان والوصف الجغرافي والعمرانيّ، والوصف الأخلاقي، والنّفسي للشخصيّة.

وبالنّظر إلى خصائص هذا الأسلوب يتناول: مستوى اللغة، ومستوى الجمل ومستوى التّعبير، ومستوى الصّورة الفنيّة[6].

والذي يهمّنا هنا هو الإشارة إلى آراء علال الغازي المتعلّقة بما استخلصه من دراسته للعبدري، وابن عبد الملك، وصاحب شرح المقصورة، والسّجلماسي صاحب المنزع، وهي الأفكار التي لم يتداولها الباحثون والدّارسون من قبل في المشرق وتكون هذه الدّراسات عونا على تكوين فكرة صحيحة عن الأثر الأدبيّ والنّقديّ في الغرب الإسلامي، فلم يكن أحد يتعرض لما في نصوص الرّحلات وتراجم الرّجال من مادّة نقديّة باستثناء بعض الإشارات والإفادات القليلة.

استطاع الأستاذ علال الغازي أن يدخل إلى عمق المادّة النّقديّة التي تشتمل على المصنّفات المغربيّة التي أخضعها للدرس النّقدي، واستخدم من أجل إبراز هذه المادّة كثيرا من المصطلحات النّقديّة المكثّفة والتّعابير والعبارات النّافذة، واستطاع أن يتوصل إلى الأحكام النّقديّة والقضايا النّحويّة والبلاغيّة والعروضيّة التي وقف عندها العبدري مع من لقيه من الشّعراء والأدباء في المغرب وفي المشرق، من خلال متن الرّحلة المغربيّة، وكتاب: "الذيل والتّكملة" وكتاب: "رفع الحجب المستورة".

وإذا نظرنا إلى مثل هذه العبارات التي تنشد الدّقة في البحث عن العلة النّحويّة أو البلاغيّة، مهما كانت ضعيفة أو صغيرة فإنّنا نجده يوظف أهميّة النّحو في سلامة البناء ودلالة التّركيب في الشّعر ويتحدّث عن علاقة النّحو ودور الالتّباس في بنيّة اللغة وتوجيه المعنى الشّعري في الزّمان والاستدلال بالتّمثيل النّحوي.

وفي فصل آخر يتحدّث عن الشّعر وشبكة اللغة والنّحو والوزن في تشكيل البناء الشّعري، ويستنبط من خلال النّصوص الشّعريّة التي أوردها العبدري في رحلته جملة ممّا يسميه بالمظاهر التّقنيّة في خدمة لغة الشّعر والنّحو والوزن في أسلوب الشّعر[7].

وفي فصل ثالثٌ يتناول الشّعر وهندسة البناء ويفصل الحديث في: الإيقاع وتوجيه الوزن ومستويات المعنى في بنيّة الشّعر ومذهبيّة المعنى وطابع البناء الشّعري[8].

هذا النّوع من الأبحاث النّقديّة التي أجراها الأستاذ علال الغازي[9]، وأجراها ثُلة من الباحثين المغاربة على النّصوص الأدبيّة من تراث الغرب الإسلامي هي التي تكشف عن القيمة العلميّة والأدبيّة والنّقديّة لهذه النّصوص.

1.2-الإشارات النّقديّة في رحلة العبدريّ (قسم المشرق): حفلت رحلة العبدري بالأحكام النّقديّة الأدبيّة، وكانت هذه الأحكام تعتمد في الغالب على الذّوق في تمييز الجيّد من الرّديء وسنحاول من خلال هذه الدّراسة أن نقف عند الشّواهد والإشارات النّقديّة التي خص بها العبدريّ شعراء المشرق لندلّل بذلك على مواطن التّوجيه النّقديّ عند العبدريّ فيما أورده من شعر لطائفة من هؤلاء الشّعراء، ولذلك لم نلتفت كثيرا إلى الشّعراء المغاربة والأندلسيّين الذين أجرى معهم العبدريّ جلساته النّقديّة أمثال ابن خميس التّلمسانيّ، وحازم القرطاجنيّ، وأبي سالم العياشيّ، وابن الغمّاز، وغيرهم لأنّ الأستاذ علال الغازي قد شرح هذه المحطّات النّقديّة بما لا مزيد عليه من الكفاية والدّقة والتّعليل والصّرامة والأهمّ هو ما جرى بين العبدريّ وأهل المشرق. وهكذا وقف العبدري من ابن المنير، وقد زاره بالإسكندريّة وحلاهُ بأجمل الأوصاف واعترف بفضله وعلمه وقال عنه: "لقيت منه بحر علم تفيض أمواجه وغيث سماح لا يفيض ثجاجه، له تصرف في صنوف العلم وفنونه ... ومارأيت أحدًا اجتمع له من حسن الحفظ وجودة اللفظ وذكاء الفهم ما اجتمع له"[10]

قرأ عليه الأحاديث واستنشده قصيدته التي يمدح فيها النّبيّ(ص) ومطلعها[11]: [الطّويل]

أجب دعوة الرّحمن يا صاح تسعدِ وبادر لرفض الحج غيرَ مفنِّدِ
ولُذْ بالمتابِ الآن وازددْ من التّقى فإنّ اتقـــاءَ الله خيرُ التّـــزودِ

قال العبدريّ: "وسمعت من لفظ قصيدته النّبويّة التي نظّمها في سفره إلى الحجاز ثم كتبها وقرأها عليه، وهي من حرِّ القصائد، ومن جملة إنصافه حفظه الله

أني راجعته منها في ألفاظ قليلة رأيت غيرها أقعد بالمعنى فاستحسن ما ذكرته وأذن لي في إصلاحها على ما رأيت"[12].

إنّ مراجعة العبدريّ لألفاظ قصيدة ابن المنير وكلماتها ومناقشته له، وهو من أشهر الشّعراء يومها في مصر والمشرق يدل على نباهة النّاقد ومتانة لغته ودقّة ملاحظاته، وما اصطلاح تلك الألفاظ بغيرها التي رآها أقعد بالمعنى، وموافقة ابن المنير على ذلك إلاّ اعتراف من هذا الأخير بمكانة العبدري في توجيه النّقد وإصدار الأحكام، رغم ما أبداه هو الآخر من اللباقة والأدب وحسن التّلطف.

والذي يقرأ قصيدة ابن المنير كما أوردها العبدري ويقارنها ببعض القصائد التي ذكرها في متن الرّحلة كقصيدة ابن جُبير إلى صلاح الدّين الأيوبي، والقصيدة الشّقراطيسيّة ليحيى بن علي الشّقراطيسي التّوزري وهي أيضا في مدح خير البريّة أوّلها: [بسيط]

الحمد لله منّا باعثِ الرّسلِ هدى بأَحمد منا أَحمد السّبلِ

يجد فرقا واضحًا بين مستوى الشّعر عند المغاربة وعند المشارقة من حيث بناء القصيدة وألفاظها وصورها ودلالة معانيها، فبينما تمتاز قصيدة التّوزري بالوضوح والسّهولة وليونة اللفظ والمعنى القريب إلى الخاطر، تغرق قصيدة ابن المنير في كثرة الجناس والطّباق والمقابلة وتكرار اللفظ ممّا يشي بالقلق النّفسي، وإرغام الخاطر على القول وهو الطّابع العام الذي كان يطبع الشّعر في المشرق.

ولقد رجع العبدري إلى رحلة ابن جُبير أكثر من مرّة ومثال ذلك قصيدته التي بعث بها إلى صلاح الدّين الأيوبي على إثر المعاملة السّيئة التي لقيها من رجال الجمرك في الإسكندريّة وهي قصيدة متينة البناء والمعنى يقول في مطلعها[13]: [متقارب]

أطلَّت على أُفقك الزّاهرِ سُعودُ من الفلكِ الدّائرِ

ومنها[14]:

رفعت مغَارم أرضِ الحجازِ بإنعامكِ الشّـاملِ الهـــامرِ

فكم لك بالشّرق من حامدِ وكم لك بالغربِ من شـــاكر

وقد بقيت حِسبة في الظّلومِ وتلـك الذّخيرةُ للذاخــرِ

ومثلها قصيدة ابن خميس التّلمساني التي يقول فيها[15]: [طويل]

أنَبْتُ ولكن بعد طول عِتاب وطول لجاج ضاع فيه شبابي

ويعلّقُ عليها العبدري قائلا: "قلت: هذه القصيدة مهذبةُ الألفاظ والمعاني الذّ من نغمات المثالثّ والمثاني، إلاّ أنّ مطلعها قلق ناب، لا يلين لو مضع بضرس وناب ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السّمع به يقلق وينزعج وقد زاوله أن يلتحم فأبى وحاولتهُ كي يلتئم فنبا"[16]. والملاحظ من تعليقه السّابق سيطرة ثنائيّة اللفظ والمعنى على تقويمه النّقدي، إذ رأى أنّ الألفاظ مهذبة بمفردها، ولكنّها تكون قلقة عندما تأتلف مع غيرها.

وممّا يدّل على التّأني والتّروي في إصدار الأحكام هو الرّجوع من حين لآخر إلى المصادر والأمهات في أحكامه وتعليقاته وإشاراته، ممّا أثار تساؤلات كثيرة لدى الباحثين، مثل ذلك التّساؤل الذي ساقه المستشرق الرّوسي كراتشوفسكي حيث تحدث عن قيمة آراء العبدري وملاحظاته، يقول:"ومن المؤكّد أنّه كان على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتجاه، وهو عندما يُضمن وصفه كلامًا من المسعودي أو البكري يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل والى التّساؤل، هلا يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة"[17]

ولم تكن وقفاته كلّها موجزة، ولكنه كان يطيل في بعضها، وربّما علل كتعليقه على القصيدة الشّقراطسيّة فقال: "قد أبدع هذا النّاظم رحمه الله فيما نظم وشرَّف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم فراقت معنى ومنظرا وشاقت حسًّا ومخبرا فهي كما وصفها أبو عبد الله المصري حين قال: يئست عن معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الإجماع، فطبقّت أرجاء الأرض وأشرقت منها في الطّول والعرض"[18]. وهكذا يبدو من كل أوصافه أنّه لم يكن متسرعا في إصدار الأحكام والانتقادات، فلم يقل كلاما غير متأكد منه.

ومع ذلك فإن التّوزري لم يسلم من انتقاد العبدري إذ أخذ عليه استعمالات لغويّة فقال: "ربّما أغرق النّزع فخلف الغرض كقوله: "فويلُ مكة من آثارِ وطأته.....

وقولهُ:

وحَلَّ بالشّام شوم غير مرتحل[19]

2.2-التّوجيهات البلاغيّة: وهي وجه آخر من وجوه النّقد، يعتمد على المعرفة بالبيان والبديع، وقد أكثر العبدري من الآراء النّقديّة الواردة في ميدان النّقد البلاغي فمن ذلك قوله في نقده للقصيدة الشّقراطسيّة: "ولكنّ قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن مُمنَّع وجلت وجها زُهاه الحسن أن يقتنع ... وقد أُولع النّاس بها كل الولوع واستحسنوا من محاسنها كل مفرق ومجموع وعنوا بها شرحًا وتخميساً"[20].

ولقي العبدري في الإسكندريّة أيضا تاج الدّين الغرافي العراقي وأثنى عليه وأورد ما أنشده من أبيات شعريّة تدل في معانيها ومبانيها على المنزلة الوضيعة التي كان الشّعر يحتلها يومئذ في مصر، منها قول أبي بكر بن بشار[21]: [طويل]

سيعلمُ من لا يتَّقي الله ربَّـــهُ إذا برزتْ يوم الحسابِ الفضائحُ

ومن لم يقدم صالحاً لم يكن لهُ مكانُ لَعمري في القيامةِ صـــالحُ

فقُل لخليعِ صالحٍ في نشاطـــه تَذكَّر إذا صاحت عليك الصّوائحُ

ومن ذلك قول علي بن محمّد الحسيني الموسوي الطّوسي[22]:

[سريع]

لعلّها ياصاح أن تنجَلـــــي إذا بَداَ صوت الصّباح الجلي

كلُ حظوظ النّاسِ في مستوى وحَظُّنا يَعْلو إلى أسفَـــــلِ

من أُمِّناَ نرجُـــــو وداداً وقَد طلَّقها قِـدمـــــا أبـُونا عَلي

ولهُ أيضا[23]: [متقارب]

متى يجْمَع المرءُ كلَّ العلوم فيدري بهـا كُل ما يجهــلُ

وإن أنفقَ العمرَ في بعضها ففي أَي حين بـــــه يعملُ

وأنشده لبعض المصريين يصفُ فوّارة[24]: [سريع]

فوارةُ تشْبِهُ في لَونـــــــها سَبيكةً مـن فضـــةٍ خـالصّةْ

تُلهيكَ بالحُسنِ فقد أصبحتْ جاريّة ملهيّة راقصـــةً

وأنشده للإمام ناصر الدّين أبي العبّاس أحمد بن منصور الاسكندري من نظمه[25]: [بسيط]

الشّعر قسمَانِ مغسولُ ومعسولُ تداولا السّمع والثّـــاني هو السّولُ
أردُّه أبــدًا إلا إذا شفَـــــعتْ فيه المحــاسنُ عندي فهــو مقبولُ

وله أيضا[26]: [كامل]

لا تحسبن الشّعر فضلاً بارعًا ما الشّعر إلاّ مِنحةُ وخبـالُ
الهجوُ قَذفُ والرّثاءُ نياحـــةُ والعتْب ضَغْن والمديح سؤالُ

وأنشده أيضا لنفس الشّاعر في الرّثاء[27]: [طويل]

ألا أيّها المختالُ في مُطرف العمْر هلُمَّ إلى قبر الفقيه أبـــي عَمرو
ترى العلْمَ والآداب والفضلَ والتّقى ونيلَ المنى والعز جُمِّعنَ في قبرِ
وتَدعُو لهُ الرّحمانَ دعوةَ صـــالحٍ تُكافى بهـا في مثّل منزلِـه القفرِ

3.2-التّوجيهات العروضيّة: تناول العبدريّ في رحلته الجانب العروضي في أكثر من موضع وهو ما يدل على معرفته بفنون القول الشّعري، ومثال ذلك نقده بيت الشّاعر ابن خميس التّلمساني:

أمُشْبهَ قلبي المُضنى احتدامًا علاما ذُدْت عن جَفْني المناما

وقد ناقش فيه إثبات "الألف" في علام وعدّه خطأً نحويًا، وقال بعد ذلك: لو حذف الألف منها لصح الوزن وكان الجزء معقولا ولكنّه زحاف قبيح"[28]

وعندما أورد أبيات شيخه أبا العباس الغّماز الآتيّة:

أيا سامع الشّكوى ويا دافع البلوى ويا كاشف الأسواء والبأس والضّر
أسير خطايا يرتجي فـــكَّ أسره وإن لم يكن أهلا لفكٍّ مـــن الأسر
ومالي لا أرجوا وإن كنت مُسرفا وأدري من الصّفح الجميل الذي أدري

وقد علق عليها بقوله :" أتى شيخنا- حفظه الله- بعَروض البيت التّامة وإنّما سمعت مقبوضة، إلاّ أنّ التّصريع في البيت ربما سوّغ ذلك كما في التّصريع، وقد وقع مثله في شعر المتنبي وتُعقِب عليه"[29]

4.2-التّوجيهات اللغويّة: يظهر مُصنف الرّحلة مقدرةً فائقة في فهم دقائق اللغة، ولذلك لا يفوتُ إبداء ملاحظاته اللغويّة في كثير من المواطن، وقد لاحظ أنّ المشارقة الخاصّة منهم والعامّة يدخلون لفظة "قط" على الفعل المضارع في مثل قول الشّاعر[30]: [رمل]

تكْتبُ العلم وتُلقي في سفَطْ ثم لا تحفظُ لا تفلحُ قَــطْ

إنّما يفلـــحُ من يحفظُ مـنْ بعد فَـهم وتـوق من غلَطْ

قال: "قلت: لم يُسمع في كلامِ العرب إدخال "قط" على الفعل المضارع، وإنّما يدخلونهُ على الفعل الماضي، فيقول: لم أفعل هذا "قط"، وذلك إن لم تصيِّر الفعل في المعنى ماضيا. ولا يقولون لا أفعله "قط"، لأنّ قط مشتقة من قط يقُظ أي يقطع فمعناه لم أفعله في كل ما مضى من الزّمان وانقطع، وهذا اللفظ تَغلط فيه الخاصة والعامّة من أهل المشرق"[31] .

ويقف العبدريّ عند بيت ابن خميس[32]:

أمُشْبهَ قلبي المُضنى احتدامًا علاما ذُدْت عن جَفْني المناما

وعلق عليها بقوله:" وقوله: علاما ذدت الوجه فيه حذف الألف لأنّ ما الاستفهاميّة إذا دخل عليها حرف جر حُذف منها الألف لكثرة الاستعمال، وفرقا بينها وبين الخبريّة"[33]

5.2-التّوجيهات التّفسيريّة والفقهيّة: أظهر العبدريّ في كل مراحل الرّحلة ومن خلال لقاءاته العلميّة ومدارسته وتعليقاته المختلفة على القصائد، ومناقشاته النّحويّة والبلاغيّة والفقهيّة، وتمثله للقرآن والبحث في القواعد الأصوليّة أنه يهتم أيضا بعقد المناظرات والمساءلات الفقهيّة بالإضافة إلى إجراء المناقشات النّقديّة في الشّعر والأدب، فهو يكشف عن ضلوعه في هذا المقام ويظهر تفوقه في هذه الجلسات العلميّة التي حضرها بالقاهرة والإسكندريّة ومكة وغيرها من المدن التي زارها منها: مسألة انعقاد البيع بالإشارة إذ تجوز للأخرس عند الشّافعي ولا تجوز لغيره، ويذهب مالك إلى جوازها في الحالتين إذا كانت الإشارة ظاهرة الدّلالة وهو ما رد به العبدري في مجلس الفقيه زين الدّين بالإسكندريّة [34]. وهذا ما يدلّ على أنّه صاحب تكوين

علمي ممتاز وثقافة واسعة كان قد حصل عليها وهو وفي بلده، والغالب أنّه قد أخذ عن أبيه الفقيه الخطيب أهم العلوم اللغويّة والفقهيّة، ولا شك أيضا أنّه نهل من المعارف التي كانت مزدهرة في مراكش فاستفاد من علمائها[35].

وإذا ألقينا نظرة على ما في الرّحلة من أوصاف وأخبار، نسارع إلى الحكم بأنّ العبدري لم يكن متساهلا في انتقاد ما يراه غير طبيعي في المستوى العلمي للبلدان التي دخلها، ولذلك أنكرَ على أهل مصّر" تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول في إنكبابهم على علم المنطق، واعتقادهم أن من لا يحسنه أن ينطق" ...ويعلق على ذلك بقوله: "ليت شعري هل قرأه الشّافعي أو مالك، أو هو أضاء لأبي حنيفة المسالك" [36].

والحقيقة أنّ العبدري لم يترك بلدًا إلاّ وجه إليه انتقاداته بصراحة لا مداراة فيها وما ذلك إلا لأنّ العبدري كان دائم البحث والتّساؤل عن المستوى العلمي والأخلاقي للبلدان التي حل بها فإذا لم يجد ذلك المستوى الرّفيع في العلم والأخلاق جهر لسانه بالنّقد والشّتم أحيانا[37] ولهذا لا يتردد في انتقاد القاهرة وسُكانها وأخلاقهم وطبائعهم وبعض عوائدهم، ومع ذلك لا يفوتهُ أن يثني على من لقيهُ من العلماء البارزين في هذه الفترة، ويعترفُ بفضلهم، والاستفادة منهم، فقد لقي شرف الدّين الدّمياطي وأثنى عليه، وقال في حقه: "ولم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانيّة، وأجمل معاملة من الشّيخ الفقيه المحدث المسند المفتي الثّقة الضّابط شرف الدّين ذي الكنيتين أبي محمّد وأبي أحمد عبد المؤمن بن خلف أبي الحسن الدّمياطي المحدث بالمدرسة الظّاهريّة... "[38] وكتب عنه الأحاديث، وسمع عليه جملة من سنن الشّافعي، وأنشده أبياتا من الشّعر، وأجازه هو وأولاده، وكان يسائلهُ عن أشياء ويباسطه..[39] .وقد نقده ابن عبد السّلام النّاصري[40]، إذ قال:"تعليقا على ذمّه لمصر وأهلها، جريًا على عادته عفا الله عنه في ذم البلاد وأهلها وما كان ينظر إلاّ بعين السّخط إليها فليته مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذّم، أو يتغافل عنه إلاّ بقصد البيان، وما رأيناه في مدح بلدة ولا سكّانها إلاّ مدينة تونس، ولو أمكنه أن يقول

في الحرمين هجوا لقال وهذا لأنّ الرّجل بربري من سكان الجبال لم يألف النّاس ولا البحث عنهم ولا الذّهاب إليهم[41]

وفيما عدا ذلك فالعبدري كان دقيق الحكم فيما يختص بالأوضاع الدّينيّة والعلميّة إلا ما ندر، يقول عن ابن دقيق العيد وهو عالم الدّيار المصريّة إذاك: "وقلَّ ما يلفى له من سعة المعارف نضير، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتّنقير"[42]. إشارة إلى ندرة العلماء من هذه الطّبقة.

والواضحُ أنّ هذا اللقاء بين العالم الجليل والعبدري لم يخل من الاستفادة والأخذ والعطاء بينهما فقد أجاز له ابن دقيق العيد جميع ما حدث به من مسموعاته وما صدر عنه من نظم ونثر، كما أوقفه العبدري على ما تقيد لديه من رحلته واستحسنه وأفاده فيها أشياء واستفاد أشياء أخرى منها : تقييد وفاة الشّقراطيسيّ صاحب القصيدة المشهورة بعد طول بحث، وجرى بين الرّجلين حديث عن أبي الحسن بن القطان الذي سأل عنه ابن دقيق العيد، وعن كتابه: " الوهم والإيهام" وتعقب ابن المواز عليه، ومعاناة ابن عبد الملك المراكشي في إخراجه، وقد تساءل ابن دقيق العيد عن ابن عبد الملك. فعرفه به العبدري وبما حضره من تحليته وما تذكر من تقاييده، ومن جملتها تذييله على كتاب "الصّلة" لابن بشكوال، وأنه كتاب متقن مفيد، فعجب ابن دقيق العيد من ذلك وكتب ما أملاه عليه منه[43] وهذا دليل آخر على اهتمام المشارقة بالمؤلفات المغربيّة التي تصل إلى أسماعهم، وكانت للعبدري علاقة صُحبة مع ابن عبد الملك المراكشي وكان كتابه الذيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة من أشهر مؤلفات العصر في المغرب مما دعا العبدري إلى ذكره والثّناء عليه في مجلس ابن دقيق العيد.

وجرى أيضا ذكر أبي القاسم الشّاطبي رحمه الله صاحبُ القصيدة المشهورة فوصفه بالحفظ العظيم وذكر أنه جرت مسألة بمحضره فذكر فيها نصا واستحضر كتابا فقال لهم اطلبوها منه في مقدار كذا، ومازال يعين لهم موضعها حتى وجدوها على ما ذكر... [44].

ويتضحُ من مناقشات العبدريّ لمن لقيه من العلماء اللامعين والمشهورين اقتناعه بدرجاتهم العلميّة واعترافه بمكانتهم الأدبيّة وانصرافه، بالتّالي، عن ذكر الطّوائف

الأخرى لقلّة بضاعتهم وضعف مستوياتهم. ويبدو العبدري أيضا ناقدًا اجتماعيًا فعندما يذكر بعض الأخبار المقترنة بعادات النّاس وبالأساطير التي تمتزج بها لا يقبل بها ويردّد العبارات التي تدلّ على بطلانها كأن يقول مثلا: " ويذكرون في ذلك أشياء لا أصل لها"، أو يقول: "وذاك باطل"[45] . ثمّ يقدم الدّليل على صحّةِ قوله. ويعتبر الأستاذ محمّد الفاسيّ بأن" الاهتمام بالنّاحيّة العلميّة من الأسباب التي جعلت الإقبال على رحلة العبدريّ منقطع النّظير، فحفظت لنا منها نسخ متعدّدة"[46]

3.الخاتمة: إنّ المتأمل في رحلة العبدريّ ليجد أن رؤيته كناقد تشفّ عن ملكة نقديّة، معتمدا في ذلك على حسّه النّقديّ العالي، وتمرّسه بالنّصوص، ودربته الكبيرة. وهذا ما يبرز مستوى ثقافته، وقد لاحظنا في توجيهاته النّقديّة الاعتماد على الذّوق المشفوع بمعرفة غنيّة، وملكة ثقفتها التّجربة والخبرة، فالمؤلف لم يكن يقبل إلا ما وافق قواعد اللغة والبلاغة والعروض، أما مناقشاته ومناظراته للعلماء فقد كانت موضع تقدير وإجلال لعلو كعبه في العلم والأدب، ولقد بدا العبدري من خلال مناقشاته صاحب تكوين علمي ممتاز وثقافة واسعة وعلى هذا يمكن اعتبار الرّحلة وثيقة مهمّة عن الحياة الثّقافيّة في أواخر القرن السّابع الهجريّ في البلاد التي مرّ بها العبدريّ ولقي علماءها وأدباءها.

4.قائمة المراجع:

1_محمّد الحاتمي، الرّحلات السّوسيّة المغربيّة بين المعرفي والأدبيّ، مختبر البحث في التّراث والأعلام والمصطلحات، فريق البحث في التّراث السّوسي، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، أكادير الطّبعة الأولى: 1934هـ/ 2012م.

2_ إنجيل بطرس، الرّحلات في الأدب الإنكليزي، مجلّة الهلال، ع 7، س: 83 يوليو 1975.

3_ فؤاد قنديل: أدب الرّحلة في التّراث العربي. مكتبة الدّار العربيّة للكتاب. القاهرة. ط2. 2002.

4_ الحسن الشّاهدي: أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ. الرّياض. ج1.

5_ علال الغازي: مناهج النّقد الأدبي في المغرب في القرن الثّامن، منشورات كليّة الآداب الرّباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 1999/42.

6_ أبي عبد الله محمّد بن أحمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق: محمّد الفاسي الرّباط. 1968.

7_ علي ابراهيم الكردي: أدب الرّحل في المغرب والأندلس، منشورات الهيئة السّوريّة العامة للكتاب دمشق، د.ط. 2013.

8-**عواطف** محمّد يوسف نواب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، مطبوعات الملك فهد، الرّياض، 1996.

9_ محمّد بن أحمد التّجاني، رحلة التّجاني مقدمة التّحقيق، تح حسن حسني عبد الوهاب، تونس وليبيا، 1981.

5.الهوامش:

[1] ينظر: الرّحلات السّوسيّة المغربيّة بين المعرفي والأدبي، محمّد الحاتمي، مختبر البحث في التّراث والأعلام والمصطلحات، فريق البحث في التّراث السّوسي، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، أكادير الطّبعة الأولى: 1934هـ/ 2012م، ص09.

[2]ـ الرّحلات في الأدب الإنكليزي، إنجيل بطرس، مجلّة الهلال، ع 7، س: 83 يوليو1975 ص50.

[3]ـ فقيه ولغوي وأديب رحالة مغربي، قام برحلة في القرن السّابع الهجري "الثّالثّ عشر ميلادي" ، وسمى رحلته باسمه "الرّحلة العبدريّة" أصله من قبيلة قريش " بني عبد الدّار" وهو مرتبط ببلنسيّة كأول مستقر لأسرته-أدب الرّحلة في التّراث العربي. فؤاد قنديل. مكتبة الدّار العربيّة للكتاب. القاهرة. ط2. 2002.ص465

[4]ـ الحسن الشّاهدي، أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1. منشورات عكاظ. ص184

[5]- علال الغازي، مناهج النّقد الأدبي في المغرب في القرن الثّامن، منشورات كليّة الآداب الرّباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 1999/42، ص:11 -12

[6]- المرجع نفسه، ص: 29-32.

[7]- المرجع نفسه، ص: 37-52.

[8]- المرجع نفسه، ص: 37-52.

[9]- أنظر ذلك بتفصيل في كتاب: (مناهج النّقد الأدبي بالمغرب).

[10]- رحلة العبدري، تحقيق: محمّد الفاسي، الرّباط. 1968، ص: 100.

[11]- المصدر نفسه، ص: 103.

[12]- المصدر نفسه، ص: 102.

[13]- المصدر نفسه، ص: 94.

[14]- المصدر نفسه، ص: 94-95.

[15]- المصدر نفسه، ص: 14.

[16]- المصدر نفسه، ص: 15.

[17]- أدب الرّحلة بالمغرب في العصر المريني: م.س.ص190

[18]- رحلة العبدري، ص: 49-50.

[19]- المصدر نفسه، ص133

[20]- المصدر نفسه، ص: 50.

[21]- المصدر نفسه، ص: 111.

[22]- المصدر نفسه، ص: 111.

[23]- المصدر نفسه، ص: 112.

[24]- المصدر نفسه، ص: 113.

[25]- المصدر نفسه، ص: 113.

[26]- المصدر نفسه، ص: 114.

[27]- المصدر نفسه، ص: 114.

[28]- المصدر نفسه ص61

[29]- المصدر نفسه ص494

[30]- المصدر نفسه، ص: 119.

[31]- المصدر نفسه، ص: 119.

[32]- المصدر نفسه، ص61

[33]- علي إبراهيم الكردي، أدب الرّحل في المغرب والأندلس، منشورات الهيئة السّوريّة العامّة للكتاب دمشق 2013.ص110

[34]- أنظر المسألة بالتّفصيل في رحلة العبدري، ص: 123.

[35]-ينظر: أدب الرّحلة في العد المريني: م.س. ص181

[36]- رحلة العبدري، ص: 130.

[37]- أدب الرّحلة في العهد المريني ص188

[38]- رحلة العبدري، ص: 132.

[39]- المصدر نفسه، ص: 138.

[40]- عواطف محمّد يوسف نواب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، مطبوعات الملك فهد الرّياض، 1996.ص117

[41]-أدب الرّحلة في التّراث العربي: م.س. ص272

[42]- رحلة العبدري، ص: 139.

[43]- المصدر نفسه، ص: 140.

[44]- المصدر نفسه، ص: 140.

[45]- المصدر نفسه، ص: 164.

[46]- محمّد بن أحمد التّجاني، رحلة التّجاني مقدمة التّحقيق، تح حسن حسني عبد الوهاب تونس وليبيا، 1981. ص11